الاغتراب فى الأدب العربى فى العصر العثمانى

Osmanlı Dönemi Arap Edebiyatında Gurbet Şiiri

دكتور/ عيد فتحى عبد اللطيف •

Eid Fathi Abdellatif Abdelaziz

Özet

Osmanlı Dönemi Arap Edebiyatında Gurbet Şiiri

Gurbet, özlem ya da ayrılık şiiri Arap Edebiyatında seçkin bir şiir türü olup, bu türde şairler aileden ve sevdiklerinden ayrı olmalarından ya da memleketten uzaklıktan kaynaklanan özlem duygularını dile getirirler. Arap Edebiyatında bu tür "Şi'ru'l-hanîn ila'l-evtân=Vatana Özlem Şiirleri" adıyla bilinmektedir. Bu türün Arap Edebiyatında doğmasının nedeni Arap şairlerin, hayatlarını temin etme, fethe giden orduya asker olarak katılıp yurdundan uzaklaşma, yurdundan başka bir yere sürülme gibi faktörler doğrultusunda bir yerden başka bir yere hareket halinde hayatını sürdürmüş olmasıdır.

Anahtar Kelimeler: Şiir, Şiir sanatı, Arap Edebiyatı, Özlem, Vatan

Longing Poems for Homeland in Arabic Literature at the Ottoman Period

Abstract: Poems, including expatriation, longing or separation are such outstanding sorts of poetry that these kinds of poets express their yearnings originated from being away from their families or their homeland. In Arabic Literature this form is known as "Şi'ru'l-hanîn ila'l-evtân" which means "Longing Poems for Homeland". The reason why it arose in Arabic Literature was that Arabic poems maintained their mobile lives from one place to another depending on the factors to earn their living, to get away from their nation as a result of joining the conquering armies or to be exiled to another country.

Key Words: Poem, poetry, Arabic Literature, longing, homeland.

• أستاذ زائر بقسم اللغة العربية – كلية الإلهيات - جامعة أتاتورك – أرضروم – تركيا

Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Ziyaretçi Öğretim Üyesi (daira2005@hotmail.com)Atatürk)

مقدمة :

شعر الاغتراب أو شعر الحنين والفراق غرض متميز في الأدب العربي، عبر فيه الشعراء عن عواطفهم التى أضناها مفارقة الأهل والأحباب ، والبعد عن الديار والأوطان .

وقد عُرِف هذا الموضوع عند أدباء العربية بشعر الحنين إلى الأوطان، وقد نشأ هذا النوع من الشعر فى الأدب العربى ؛ لأن الشاعر العربي مطبوع على الرحلة والتنقل من مكان إلى آخر، لعوامل كثيرة ، من أهمها : طلب المعاش ، والخروج مع الجيوش الغازية والنفي والتشريد ، وغير ذلك .

الاغتراب أو الحنين إلى الوطن :

يراد بشعر الاغتراب أو الحنين إلى الوطن ، ذلك الشعر الذى قيل فى حب الوطن الذى نشأ فيه الشاعر ، مدحًا كان أو ذمًّا ، أو تحسرًا على ما كان ينعم به من متع وملذات فيه .

وقد ظهر هذا الفن الأدبى ، وانتشر انتشارًا كبيرًا فى العصور المتأخرة فى العالمين العربى والإسلامي، استجابةً للنقلة الحضارية الضخمة من الخيام ومضاربها ، والصحراء وهجيرها ، إلى القصور والحدائق الغنَّاء ، والعلاقات الاجتماعية المتشابكة . وما إلى ذلك مما جلبته هذه النقلة الحضارية وأدى إلى الإحساس بالوطنية والشعور بالوطن وحبه [(1)] .

ومنذ أن بدأ استقرار المسلمين فى حواضر العالم الإسلامى ، بدأت الروح الوطنية فى الظهور والنماء والتطور ، حتى وجد لها صدى فى النتاج الأدبى ؛ وذلك لأن الإنسان فى العالمين العربى والإسلامي بداية من العصر العباسى قد أصبح يحن إلى المدينة التى نشأ فيها ، وتشابكت علاقاته الاجتماعية مع أبنائها وأهلها ، وأصبحت المدينة تمثل كيانًا له معنى ووجود فى نفسه ، وتولد لديه شعور إنسانى نبيل إزاءها [(2)] .

وأما فى العصر العثمانى فقد كثر الشعراء الذين عرفوا بشعر الحنين إلى الوطن ، وظهر اشتياقهم الشديد إلى مرابعهم الأولى ، وموطن شبابهم ، ولهوهم ،

(1) انظر محمد عبد العزيز الموافى : حركة التجديد فى الشعر العباسى - ص 133

(2) انظر المرجع السابق : ص 135 ، وانظر أيضًا : عز الدين إسماعيل : فى الشعر العباسى، الرؤية والفن ، ص 364

فى شعرهم ، ومن هؤلاء الشعراء : ابن النقيب [3] ، والأمير منجك [4] ، وفتح الله بن النحاس [5] ، ودرويش المعروف بالخال الطالوى [6] ، وعبد اللطيف بن يحيى بن محمد بن القاسم ، المعروف بلطفى ابن المنقار الدمشقى الحنفى [7] ، وغيرهم كثير .

وقد اشترك الشعراء جلهم ، فى العصور كلها فى سبب ظهور شعر الحنين إلى الوطن الذى كان ناتجًا عن كثرة اغتراب هؤلاء الشعراء عن أوطانهم وبلادهم، فالأمير أحمد بك بن حسين باشا بن مصطفى المعروف بالكِيوَانِى الدّمشقى المولود فى أواخر القرن الحادى عشر الهجرى ، والمتوفى سنة (1173هـ = 1759م) ، كان قد ارتحل إلى مصر ، وعاش بها ، والتقى بها بكثير من العلماء[8]، ولما طالت إقامته بها ، كثر شعره فى الحنين إلى بلاده، وكان يكثر من وصف غربته وتغربه، ويعبر عما يعتلج فى نفسه من الشوق إلى دمشق وإلى أحبابه فيها ، ولهذا فقد كان

(3) هو أحمد بن محمد الحسنى ، المعروف بابن النقيب الحلبى ، أديب وشاعر بارع ، وناثر بديع ، ولد بحلب وبها نشأ ، وأخذ عن عمر العرضى ، وتأدب بإبراهيم بن المنلا ، تولى القضاء ، ودرس بالقدس ، وولى نيابة القضاء بحلب فترة ، وكانت وفاته سنة 1056 هـ . انظر : خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 318

(4) هو الأمير منجك بن محمد بن منجك بن أبى بكر بن عبد القادر بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن منجك الكبير اليوسفى الدمشقى ، طلب العلم صغيرًا ، فقرأ على عبد الرحمن العمادى ، والحديث عن الشهاب أحمد الوفائى ، وأبى العباس المقرى ، والأدب عن أحمد بن شاهين ، وبرع فى الشعر ، وكانت وفاته سنة 1080 هـ وعمره 73 سنة . خلاصة الأثر للمحبى : 4 / 409 - 423

(5) هو فتح الله ، المعروف بابن النحاس ، شاعر مجيد ، من أهل حلب ، كان حسن الصورة ، جميل المعاشرة ، طاف كثيرًا بالبلاد ، وكان لا يستقر فى مكان ، وكانت وفاته بالمدينة المنورة سنة 1052 هـ . انظر : خلاصة الأثر للمحبى : 3 / 257 - 266

(6) هو درويش محمد بن أحمد وقيل محمد أبو المعالى الطالوى الأرتقى الدمشقى الحنفى ، أحد كبار شعراء وكتاب العصر ، وكان ماهرا فى كل فن من الفنون الشعرية والنثرية ، مفرط الذكاء فصيح العبارة ، قرأ الأدب والمنطق والحكمة والتصوف على أبى الفتح المالكى ، وأخذ التصوف من منلا غياث الدين ، وقرأ الفقه الحنفى على نجم الدين محمد البهنسى ، خطيب دمشق ومفتيها ، وقرأ المعانى على العماد الحنفى ، وتولى تدريس المدرسة الخاتونية بدمشق ، وتولى قضاء دمشق ، وتولى عدة مدارس بالشام ، وله كتاب يسمى سانحات دمى القصر ، جمع فيه أشعاره وترسلاته . خلاصة الأثر للمحبى : 2 / 152

(7)أديب فاضل ، وشاعر جيد . خلاصة الأثر للمحبى : 3 / 15

(8) كان قد تعلم النحو على الشيخ محمد الدلجى ، والفقه على أحمد الأسقاطى الحنفى وغيرهما . انظر تاريخ الأدب العربى فى العصر العثمانى لعمر موسى باشا : ص 508

له حوالى ثلاثين قصيدة تتحدث عن الاغتراب والغربة والحنين إلى وطنه وبلاده وأهله وأحبابه **(9)** .

ولما ترك مصر راحلاً منها إلى بلاده اشتاق إلى حياته السعيدة بها ، وأخذ يصف كثرة ما وجده من حب أهلها له ، وحبه لهم ، ولهذا نراه يصف هذه المشاعر الجميلة ويقول داعيًا الله تعالى بالبركة والنماء والخصب لمصر ، وواصفًا حب أهلها وكرمهم وخصالهم وأخلاقهم الطيبة :

سَقَى الله فى مصرَ السعيدةِ منـزلاً ... قضـى الله فيـه باجتمـاعِ ذوِى اللّـبِّ
محـل لمعسُـولِ السَّـجَايَا لِقَـاؤُه ... أحبُّ إلى الظامى من الخَصْر العذبِ
وإخـوانُ صِـدْقٍ مستقيمٌ وِدادُهـم ... وشَـرّ الأخـلاءِ المقـوّمُ بالعتـبِ
نَعِمْنـا بـه حينًـا مـن الدَّهْرِ نحتَسِى ... سـلافةَ آدابٍ تجـمُّ علـى الشـربِ[10]
أرقُّ وأشْـهَى مـن تنصّـلِ مغـرمٍ ... وأعذبُ من عتب الحبيب على الصَّبِّ
بحيـثُ ترانـا للوجـوهِ صـيارفًا ... ولسـت ترانـا نصـرفُ الهـمَّ للكسـبِ
هو الدَّهْرُ قد يسخو بإسْباغ نعمةٍ ... ولكنهـا الأيـامُ تسْـرِعُ بالسـلبِ
وأبرحُ ما يبلى السرورَ فراقُ ذى ... وداد صـحيح فـى التباعـدِ والقـرْبِ
سلامٌ من الرَّحْمنِ يصحبُ رحمةً ... على كلِّ من يرعى العهودَ من الصَّحْبِ
ألا لا يلُمْنـى بعـدَكم عنـدَ غَفْلـةٍ ... عشـيرٌ فمـا فـارقتكم ومعـى قلبـي[11]

ويتحدث عن ابتعاده وفراقه لبلاد ولأهله وعشيرته ، ويصف حالته النفسية السيئة فى مصر وبخاصة بعد أن أخفق فيما يسعى إليه من مجد وشهرة ، وكيف أصابه هذه البعاد والفراق بالضنى والألم والحزن الشديد حتى إنه أصبح ذابل اللون، هزيلاً نحيف الجسم ، فيقول :

(9) المرجع السابق :ص 509

(10) قال الزبيدى فى تاج العروس : السُّلاَفَةُ : الْخَمْرُ كَالسُّلاَفِ بغيرِ هاءٍ وهو أَوَّلُ ما يُعْصَرُ منها وقيل : مَا سَالَ مِن غَيْرِ عَصْرٍ وقيل : هو أَوَّلُ ما يَنْزِلُ منها وفي التَّهْذِيبِ السُّلاَفُ والسُّلاَفَةُ مِن الخَمْرِ : أَخْلَصُها وأَفْضَلُهَا وذلك إِذَا تَحَلَّبَ من العِنَبِ بلا عَصْرٍ ولا مَرْثٍ وكذلك مِن التَّمْرِ والزَّبِيبِ ما لم يُعْدِ عليه الماءُ بعدَ تَحَلُّبِ أَوَّلِهِ قال امْرُؤُ القَيْسِ : كَأَنَّ مَكاكِيَّ الجِوَاءِ غُدَيَّةً ... صُبِحْنَ سُلاَفاً مِن رَحِيقٍ مُفَلْفَلِ
وأجْمَعُ مِمَّا ذُكِرَ قَوْلُ الراغِبِ في مُفْرَداتِهِ : السُّلاَفَةُ : ما تَقَدَّم العَصْرَ وسُلاَفُ الْعَسْكَرِ : مُقَدَّمَتُهُمْ . ويقال : جَمَّت البئر تَجُمُّ جماً وجموماً، إذا تراجع ماؤها.

(11) ديوان الكيوانى : 192 - 193

نـــاءٍ بمصـــرَ وبالشَّـــام حبيبـــه دَنِـفٌ ولكـن أيـن منـه طبِيبـهُ ؟[12]
رقَّـــتْ لـــه أوصـــابُهُ ونحولـــه وبكـى عليـه بكـاؤه ونحيبـه [13]
قلـــقُ الفـــؤادِ وصـــبُّه وطروبـــه ومشُـــوقُه وسَـــلِيبهُ ولسـيبُه[14]
أفنَـــى تجلّـــدَه النَّـــوَى وشـــبابَه وأعـــارَه كمـــدًا يبيـــتُ يُذِيبـــهُ
يامـانعى الشكوى وقدْ أبلَـى الضَّـنَى جسـمى وأفنَـى مهجتـى تعذيبـهُ
يـا يوسفَ الحسنِ الذى قد شاق يعـ ـــقوبَ الأسَـى فاشـتاقَه يعقُوبـه
عـــذَّبتَ أيُّـــوبَ الصَّـــبَابَةِ والبِلـى أفـــلا يضـــيقُ بِضُـــرِّهِ أيُّوبـــهُ
كبـدٌ تسـيلُ مـن الجفـونِ ومـدمعٌ أبـدًا تصـوبُ شـؤونُه وغرُوبـهُ
أنا صاحبُ القلبِ المعذَّب فى الهوى أبـدًا يزيـدُ وجيبـه وندوبـهُ [15]

وكذلك كان حال "فتح الله بن النحاس" فى القاهرة عندما طال اغترابه بها، وفراقه لبلاده ، وأهله ، حيث نحل جسمه، ولان عظمه ، وظهرت عليه الشيخوخة، ولهذا قال معبرًا عن هذه الغربة :

إنْ رُمْتَ تنظُرُ فعْلَ البَيْنِ فى جَسَدٍ فـانُظُرْ إلَـيَّ فـإنِّى ذلـكَ الجَسَـدُ
أنَـا الغرِيـبُ الـذِى إن مـاتَ فـى بلَـدٍ لَـمْ يرثـه غيـرُ جـارِى دمْعِـهِ أحـدُ
إذَا بَكَـى كُتِبَـتْ فِـى الأرْضِ أدْمُعُـهُ العِشْـقُ لا ينْقَضِـى أو ينقَضِـى الأبَـدُ
ينْدَى الثَّرَى مِنْ عِظَـامِى كُلَّمَـا بَلِيَتْ ولا يَـزَالُ عليـهِ ينْبُـتُ الكمَـدُ
علاقـةٌ لِـى بالشَّـهْبَاءِ مـا ذُكِـرَتْ إلاَّ اسْتَفَاضَتْ دمًا مِنْ مقلتِى الكبِدُ[16]

(12) دنف : قال الزمخشرى فى أساس البلاغة : دنف الرجل دنفًا: ثقل من المرض ودنا من الموت كالحرض. ورجل دنف، ودنف. ورجلان ورجال دنف، وكذلك الأنثى. وأدنفه المرض: أثقله. وأدنف بنفسه فهو مدنف ومدنف، نحو سكت وأسكت. ومن المجاز: أدنفت الشمس: دنت للغروب.

(13) قال الزبيدى فى تاج العروس : الوَصَبُ محرَّكَةً : المَرَضُ . وقيل : الأَلَمُ الشَّدِيدُ وقيل : الأَلَمُ الدّائمُ . وقيلَ : المَرَضُ والنَّصَبُ : التَّعَبُ والمَشَقَّة. والوَصَبُ : دَوامُ الوَجَعِ ولُزُومُه . وقال ابْنُ دُرَيْدٍ : الوَصَبُ : نُحُولُ الجِسمِ من تَعَبٍ أَو مَرَضٍ . وَصِبَ كفَرِحَ يَوْصَبُ وَصَباً ووَصُبَ تَوْصِيباً وتَوَصُّبَ وأَوْصَبَ وهذه عن الزَّجّاج وهوَ واصِبٌ . والأَوْصَابُ : الأَسْقَام الوَاحِدُ وَصَبٌ . ورجلٌ نَصبٌ وَصِبٌ من قومٍ وَصَابَى ووِصَابٍ بالكسر . وأَوْصَبَهُ الدَّاءُ : أَسْقَمَهُ . وأَوْصَبَهُ اللهُ تعالى : أَمْرَضَهُ . أَوْصَبَ القَوْمُ على الشَّيْءِ وأَوْبَرُوا عليه : ثابَرُوا .

(14) يقال : لسبته الحية : لدغته .

(15) الديوان : 44

(16) نفحة الريحانة للمحبى : 1 / 550

ويتذكر حلب الشهباء ، وما بها من أهل كرام عليه ، وأحبابه وأصحابه، فيقول :

دارُ اغترَابِى التى عَنِيتُ بِها مصْـرَ ودَارِى وحبَّـذَا حلـبُ
دارٌ تُميـتُ الهمـومَ نفحتُهَـا وتفتـدِى مـن عبيرِهَـا الكُثـبُ
لا قُرْبُهَـا للكِـرَامِ مَضْـيَعةٌ ولا حِمَاهَـا للضَّـيْمِ مُنْقَلَـبُ
صـافِحْ ثَرَاهَـا إذَا نَزَلْـتَ بِهَـا فَمِـنْ ثَرَاهَـا الأعِـزَّةُ النُّجـبُ
فارِقْتُهَـا والكِـرَامُ مِـنْ قِـدَمٍ تقسمُوا فـى الـبِلادِ وانْشَـعَبُوا
علَـــىَّ ألا تنـــامَ لوْعَتُهَـــا بـينَ الضُّـلُوعِ هُمُومُهَـا شـعَبُ
آهٍ ومَـنْ للغَرِيـبِ فـى بَلَـدٍ إنْ سَـغَبٌ مَسَّـهُ وإنْ لَغَـبُ
أضْحَكَ فِى أُسْرَتِى وتَشْرُقنِى إذَا خلَـوْ عبْرَتِـى وأنْتَحِـبُ[17]

أما عبد اللطيف بن يحيى بن محمد بن القاسم ، المعروف بلطفى ابن المنقار الدمشقى الحنفى فقد أخذ يتشوق إلى التنزه فى بلاده ، ويتشوق إلى دمشق ، ويذكر متنزّهاتها ورياضها وزهورها وقراها ، وفى هذا المعنى نظم قصيدة طويلة فى الشوق إليها يقول فى أولها :

سَقَى دارَ سُعْدَى مِن دمشْقَ غَمَامُ وحَيَّـى بقَـاعَ الغُـوطَتَيْنِ سَـلاَمُ
وَجَادَ هِضَابَ الصَّالِحِيَّةِ صَيِّبٌ لـه فـى ريـاض النيـرين ركـامُ[18]

ولما تذكر الديار والحمى وما بها من أحباب وأصدقاء ، أصابته رعدة قوية زلزلت كيانه ، وجعلته مثل الطريدة التى تحتاج إلى الماء ولكنها تبعد عنه ، ولهذا أخذ يبكى وينوح نياحًا به كثير من اللوعة والحزن والألم ، كمن فقد من يحب ويهوى ، وأخذ يسأل أصحاب رحلته ومن يخلص إليهم بالنجوى والسر ، هل يمكن أن يكون قد من الله على دمشق بالماء والمطر بعد أن رحلوا عنها وتركوها وراء ظهورهم ؟!!!! :

(17) المرجع السابق : ص 133

(18) الغوطتان : مثنى الغوطة ، وهى الكورة التى منها دمشق ، وتحيط بها جبال عالية من جميع جهاتها ، وتخرج المياه التى تسقيها من تلك الجبال . والنيران : مثنى النيرب ، وهى قرية مشهورة من قرى دمشق ، تقع فى وسط البساتين . نفحة الريحانة للمحبى : 1 / 72 - 73 ، هامش رقم 8 .

ذَكَرْتُ الحِمَى والدَّارَ ذكرَ طريدَةٍ تـــذَادُ كظَمْـــآنٍ سَـــلاهُ أوامُ[19]
فَنُحْتُ على تِلكَ الرُّبوعِ تَشَوُّقًا كما نَاحَ من فَقْدِ الحميمِ حَمَامُ[20]
أيا صَاحِبَىْ نَجْوَاىَ يومَ ترحَّلوا وحَزْنُ الفَلا ما بَينَنَا وأكَامُ [21]
نشَدْتُكُمَا بالوُدِّ هل جادَ بعْدَنَا دمشقَ كَأجْفَانِى القِراحُ غمَامُ[22]

ويستمر فى التساؤل عن كثير من الأشياء، مثل : الأمطار ، ونمو الأعشاب فى رياضها، ووادیها السعید ، وأنهارها وجبالها ، ویسأل عن حیواناتها وطیورها ، وعن أهلها وأصحابه فیها فیقول :

وهـلْ عـذَباتُ الَبـان فيهـا مَـوَائِسٌ وَزَهْرُ الرُّبَى هَلْ أبْرَزَتْـهُ كِمَامُ[23]
وهل أعشب الرَّوْضُ الدِّمَشْقِىُّ غِبَّنَا وَهَلْ فَاحَ فِى الوَادِى السَّعِيدِ بَشَامُ[24]

(19)الأُوامُ بالضم العَطَش وقيل حَرُّه وقيل شِدَّةُ العَطَش وأن يَضِجَّ العَطْشان .
(20) الحميم : الحبيب والعشيق ، والحمام : الطائر المعروف .
(21) نجواى : يقصد النجوى ، وهم أصحابه الذين يتقرب إليهم ويسرهم أحزانه وآلامه التى تؤثر فيه . ترحلوا : جمعوا أشياءهم ومتاعهم وهموا بالرحيل ، الفلا : الفلاة أى الصحراء الواسعة والشديدة الوعورة والقاسية التى لا زرع فيها ولا ماء . والحزن : هو الصعب والصلب من الأشياء ، وأكام : قال ابن منظور فى لسان العرب : الأَكَمَةُ معروفة والجمع أَكَماتٌ وأَكَمٌ وجمع الأَكَمِ إِكامٌ مثل جَبَلٍ وجِبالٍ وجمع الإِكامِ أُكُم مثل كتابٍ وكُتُبٍ وجمع الأُكُم آكامٌ مثل عُنُقٍ وأَعْناقٍ .... قال يقال أَكَمة وأَكَم مثل ثَمَرة وثَمَر وجمع أَكَمَةٍ أُكُم كخَشَبَة وخُشُبٍ وإِكام كَرَحَبةٍ ورِحاب ويجوز أَن يكون آكام كجَبَل وأَجْبالٍ غيره الأَكَمَةُ تَلٌّ من القُفِّ وهو حَجر واحد .. وعن ابن سيده : الأَكَمَة القُفُّ من حجارة واحدة وقيل هو دون الجبال . وقيل : هو الموضع الذي هو أَشدُّ ارتفاعاً ممَّا حَوْلَه وهو غليظ لا يبلغ أَن يكون حَجَراً والجمع أَكَمٌ وأُكُمٌ وأُكْمٌ وإِكامٌ وآكامٌ وآكُمٌ كأَفْلُسٍ .
(22) يقال : القُراح من كل شيء الخالص ويقال ماء قراح ومن الأرض المخلاة للزرع وليس عليها بناء والجمع أقرحة(القرح) الجرح وجرب يأخذ الفصلان فلا تكاد تنجو منه والجمع قروح . والقرحة : البثرة إذا دب فيها الفساد والجمع قرح وقروح . والقُرحة والقَرحة بياض بين عيني الفرس مثل الدرهم الصغير . والقريح : الجريح والجمع : قرحى ومن الماء الخالص الذي لا يخالطه شيء وقريح السحابة ماؤها حين ينزل والجمع أقرحة .
(23) الربا: الأراضي العالية. ونبات الربى لا يبقى إلا بالغمام لأنه لا شرب له إلا من مائه وغير نبات الربى يمكن أن يجري إليه الماء. كمام : الكُمُّ للقميص، والجمع أكْمامٌ وكِمَمَةٌ. والكُمَّةُ: القلنسوة المدوَّرة، لأنَّها تغطي الرأس. والكِمُّ والكِمَّةُ بالكسر والكِمامَةُ: وعاءُ الطلع وغطاء النَوْر، والجمع كِمامٌ وأكِمَّةٌ وأكْمامٌ.
(24) الغبُّ : نوع من الورد ، البشام : جمع "البشامة" وهى شجرة طيبة الريح و الطعم يستاك بها صغيرة الورق لا ثمر لها إذا قطع ورقها أو غصنها سال منها لبن أبيض .

وَهَلْ رَبْوةُ الأنْسِ التى شَاعَ ذِكْرُهَا تجولُ بها الأنهارُ وهْىَ جِمَامُ[25]
وهل شَرَفُ الأعْلَى مُطِلٌّ وقصرُهُ على المرجة الخضراء فيه كرامُ[26]
وهل ظل ذاك الدوح ضاف وغُصنُهُ وريق وبدر الحى فيه يقامُ(27)
وهل ظبياتٌ فى ضَمِيرٍ سَوانِحٌ وَعيْنُ الْمَهَا هل قادَهُنَّ زمَامُ[28]
وهل أُمَوِىُّ العلْمِ والدِّينِ جَامِعٌ شَعَائِرُه والذِّكْرُ فِيهِ يُقَامُ
وهل قَاسِيونٌ قَلْبُه مُتَفَطِّرٌ وفِيهِ الرِّجَالُ الأرْبَعونَ صِيَامُ[29]
ألا ليتَ شِعْرِى هَل أعودُ لجلِّقٍ وهل لى بوادى النَّيربَيْنِ مُقَامُ[30]
وهل أردَنْ ماءَ الجزيرَةِ رَاتِعًا بِمَقْصَفِهَا وَالحظُّ فِيهِ مرامُ
سَلامٌ علَى تلك المغانِى وأهلِهَا وإنْ رِيشَ لِى من نَأْيِهنَّ سِهَامُ[31]
لقد جُمِعَتْ فيها محاسِنُ أصْبَحَتْ لدرْجِ فَخَارِ الشَّامِ وهْىَ خِتَامُ
بلادٌ بِها الحصْبَاءُ دُرٌّ وتُرْبُهَا عبيرٌ وأنْفَاسُ الشَّمَالِ مدَامُ[32]
وغُرَّتُها أضْحَتْ بجَبْهَةِ روْضِهَا تضىء فَخَلْخَالُ الغَدِيرِ لِزَامُ[33]
تَنَاءَيْتُ عنها فالفؤادُ مشَتَّتٌ وَوَعْرُ الفَيَافِى بيْنَنَا ورُغَامُ[34]
لقد كِدْتُ أَقْضِى من بعادِى تشوُّقًا إليها وجِسْمِى قد عرَاهُ سَقَامُ [35]

(25) جمام : ممتلئة بالماء .
(26) الْمَرْجُ : أرض واسعة فيها نبت كثير تمْرَجُ فيها الدواب وجمعها مُروج.
(27) الدوح: واحده دوحة وهي الشجرة العظيمة الملتفة الأوراق ، ضاف : واف كاف . وريق : كثير الورق .
(28) ضمير : تصغير قرية بدمشق فى آخر حدود دمشق مما يلى السماوة . والسَوَانحُ : جمع السانحُ: ما أتاك عن يمينك من ظبي أو طائر ، والبارح ما أتاك من ذلك عن يسارك، وقيل السانحُ الذي يجيء عن يمينك. والعرب تختلف في عيافة ذلك: فمنهم من يتيمن بالسانحِ ويتشاءم بالبارح ومنهم من يخالف بذلك. والسّنيحُ كالسانحِ. والمها : البقرة الوحشية .
(29) قاسيون : جبل فى بلاد الشام .
(30) جلق ووادى النيربين : أسماء أماكن ببلاد الشام .
(31) المَغَاني : المنازل ويقال : غَنِيت بالدارِ ، أقَمْت بها ، وقيل: المَغَاني : المَنازِل التي كان بها أهْلُوها.
(32) المدام : الخمر .
(33) قد يقصد بالخلخال: خلخال المرأة الذى تتزين به ، وقد يقصد : البَلَحُ . فيقال : أَخَلَّتِ النَّخْلَةُ: أَطْلَعَتْهُ وأساءَتِ الحَمْلَ أيضاً. وعَرَضٌ يَعْرِضُ في كلِّ حُلْوٍ فَيُغَيِّرُ طَعْمَهُ إلى الحُموضَةِ .
(34) الفيافى : الصحارى ، الوعر :الشديد الصلب القاسى ، الرَّغامُ : رمل مختلط بتراب وقيل : الرَّغامُ من الرمل ليس بالذي يسيل من اليد وقيل: الرَّغامُ دُقاق التراب .
(35) أقضى : أموت . عراه : أصابه . انظر : الخلاصة : 15/3 ، نفحة الريحانة : 1/ 165

ويتحدث محمد بن على الحريرى الحرفوشى [36] عن الذى أصابه من ألم الفراق ، وما تبع ذلك من هزال أصاب جسمه ، وعلة أصابت قلبه بغصة شديدة ، كما أخذ يشتكى من قسوة الأيام والليالى التى أصابته بهذا البعاد والفراق ، فقال متشوقًا إلى وطنه :

فـــؤَادُ المُعَنَّـــى بالتَّبَاعـــدِ مـــودَعُ ... بِحَـيِّ الـذِى يهـوَى فلُومُـوهُ أو دَعُـوا[37]
ففِـي قلبِـه مـن لاعِـجِ الوجْـدِ شـاغِلٌ ... ولـيسَ لـه فـى العـيْشِ بالبُعْـدِ مَطْمَـعُ
يَـوَدُّ بـأَن يقضِـى ولـم يقْـضِ سـاعةً ... لـــه بـــالنَّوَى لـــو كـــان ذلـــك يَنْفَـــعُ
ومـــا باختِيـــارٍ منـــهُ أصـــبحَ نازِحًـــا ... ومـاذا الـذى فيمـا قضـى البـيْنُ يصْـنَعُ
سأشْـكُو مـن البـينِ المُفْـرِّقِ بينَنَـا ... إلـــى اللهِ عـــلَّ اللهَ للشَّـــمْلِ يجمـــعُ
فجِسْـمِى نحيـلٌ مُـذْ نـأى مَـنْ أوَدُّهُ ... وعَيْنِـى لطُـولِ البُعْـدِ لـم تـكُ تهْجَـعُ
فلـو عـادَنِى العـوَّادُ لـم يَهْـدِهِمْ إلـى ... مَكـانِى سـوى مَـا مِـنْ أنِينِـى يُسْـمَعُ
ولـو عـادَ مَـنْ أهوَى لعـادتْ بـه القُـوَى ... لجسْـــمٍ بـــأثْوَابِ الضَّـــنَى يتلَفَّـــعُ
فيـا ليـتَ شِـعْرِى هـل أراهُ ولـو كَـرًى ... وهـل ذلِك الماضِـى من العَيْشِ يَرْجِعُ
وهَـلْ عَلِـمَ الأحْبَـابُ أنِّـى مُفـارِقٌ ... حُشَاشَـةَ نفسٍ ودَّعَـتْ يـومَ ودَّعُـوا
وهَلْ هُمْ علـى العَهْـدِ القـدِيمِ الـذى أنـا ... عليـــهِ مُقِـــيمٌ أم لـــذلكَ ضَـــيَّعُوا[38]

ويتشوق تاج الدين بن أحمد المحاسنى المتوفى سنة 1060هـ [39] ، وهو بمصر ، إلى دمشق فيقول :

(36) هو محمد بن على بن أحمد المعروف بالحريرى الحرفوشى العاملى الدمشقى ، إمام لغوى وأديب بارع ، تعلم على العمادى المفتى ، وله شرح الأجرومية يسمى اللآلىء السنية ، وشرح شرح الفاكهى ، وشرح الزبدة فى الأصول ، ولطائف الانسجام فى محاسن الأشعار ، وكان رئيس العلماء فى بلاد العجم ، وكان يعمل فى صناعة الحرير ، وكانت وفاته ببلاد العجم فى شهر ربيع الثانى سنة 1059 هـ .خلاصة الأثر للمحبى : 4 /49 - 54

(37) المعنَّى : المصاب بألم الفراق وحرقته .

(38) نفحة الريحانة للمحبى : 1 / 195 - 196

(39) هو محمد بن تاج الدين بن أحمد المحاسنى الدمشقى الحنفى ، إمام وخطيب جامع دمشق ، كان أديبًا كبيرًا ، ولد سنة 1012 هـ ، و تعلم على كبار علماء عصره منهم الشرف الدمشقى ، وعبد اللطيف الجالقى ، والعماد المفتى ، وعمر القارى ، والنجم الغزى ، ومحمد المحبى ، ودرس بالجامع الأموى وبمدرسة الجوهرية ، وعمل إمامًا لجامع بنى أمية ، واشتهر بالخطابة ، وتعلم على يديه كثير من العلماء ، منهم : محمد بن على الحصفكى مفتى الشام ، وإبراهيم بن منصور الفتال ، وله شعر جيد ، وكانت وفاته غرة شعبان سنة 1072 هـ . انظر : خلاصة الأثر للمحبى : 3 / 408 - 411

مُنْـذُ فَارَقْـتُ جِلَّقًـا ورُبَاهَـا ... لَـمْ يَـزُرْ مُقْلَتِـى لَذِيـذُ كَرَاهَـا
وبِسُـكَّانِهَا الأحِبَّـةِ عِنْـدِى ... فـرْطُ شـوقٍ يَكَـادُ لا يَتَنَـاهَى
فسَـقَى اللهُ رَبْعَهَـا كُـلَّ غَيْـثٍ ... وحَمَـى اللهُ أَهْلَهَـا وحَمَاهَـا[40]

أما ابن النقيب فيتشوق ويحن إلى وطنه ، ويتذكر أيام الصبا فى مدينته ، وما كان فى هذه الأيام من سعادة بالغة ، حتى إنه ليتخيل هذه الديار وكأنها جنة الله – تعالى – فى أرضه ، أودع فيها سبحانه وتعالى كل شىء جميل وحسن ، ففيها الزهور والرياحين ، وفيها الأصدقاء والأحباب ، وفيها الأهل والإخوان ، وفيها كل ما كان يتمناه من أمانى ، ثم ترجع إليه نفسه ، وتهدأ مما أصابها من حزن وألم على فراقها ، ويتساءل وكأنه يخبر نفسه ويدعوها إلى الصبر الجميل ، ويقول هل دام شىء فى الأرض من قبل ، فكل الذين سبقونا قد مضوا وذهبوا ، ولم تدم لهم الدنيا ، ولم تدم لهم حياتهم ، فكيف يطلب من نفسه اليوم أن تدوم عليه أيام الصبا بشبابها وجمالها وبهائها ، أو تدوم عليه أيام الشباب بما فيها من قوة وفتوة ولذة وسرور وحبور ، فكل شىء ما خلا الله هالك لا محالة :

سَقَى الله عَيشًا مرَّ فى زَمَنِ الصِّبَا ... وحيـــاهُ عَنِّـــى بِـــالعَبِيرِ نَسِـــيمُ
ودَهْـرًا بِقسْـطَنطينية قَـدْ قطعتـه ... إذ السَّـعْدُ عَبْـدٌ لِـى بهـا وخَـدِيمُ
بِـلادٌ هِـى الـدُّنْيا إذَا مَـا قَطنْتهـا ... فوجـه الأمـانى مسـفر ووشـيمُ
ومـا هـى إلا جَنَّـةُ الخلْـدِ بهجَـةً ... ومـا غيرهـا إلا لظـى وجحـيمُ
فَكَـمْ فـى مَغَانِيهَـا قَضَـيتُ لبانَـةً ... وزالـت عـن القلـب الكلِيمِ همـومُ[41]
وقُـرْبَ أبِـى أيُّـوب كَـمْ رَوضَـة إذا ... حَلَلْـتَ بِهَـا يَوْمًـا فَلَسْـتَ تـريمُ
تقـول إذا شـاهدت عَـالِى قصـورِهَا ... أهَـذِى جِنَـانٌ زُخْرِفَـتْ ونَعِـيمُ
جـرى ماؤهـا كالسلسـبيل فمثلهـا ... إذا مـا تـذكرت البِقَـاعَ عـديمُ
كَسَـتْهَا الغَـوَادِى حُلَّـةً سُنْدُسِـيَّةً ... وأهْـدَى شَـذَاهَا لِلنُّفُـوسِ شَـمِيمُ(42)
وبالسَّـفْحِ سَـفْح الطّوبْخَانَـة أربـع ... لهـا النَّسْـرُ فـى جـوِّ السَّمَاءِ نَـدِيمُ[43]
تَلـوحُ بهـا الغِيـدُ الصَّـبَاح كَأَنَّمـا ... علـوا وإشـراقًا تَلـوحُ نُجـومُ[44]

(40) خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 456 ، نفحة الريحانة للمحبى : 1 / 348

(41) المغاني بالغين المعجمة جمع مغنى وهو الموضع الذي كان غنيا به أهله .

(42) الغوادى : جمع الغادية السحابة تنشأ غدوة) وفى الصحاح صباحا (أو مطرة الغداة) . والشذا : يقال : شَذا إذا تطيَّبَ بالشَّذْوِ وهو المِسْكُ ويقال وهو رائحة المسك .

(43) الطوبخانة : مكان جبلى فى الأستانة ، والنسر : كوكب أو نجم فى السماء .

(44) الغيد : جمع الغادة ، والغادة من النساء الناعمة اللينة، والغيداء المُتثنية من اللين.

يقابِلهَـــا ذَاكَ الخَلِـــيجُ بِصَـــفْحَةٍ كَـأَنَّ لهـا مَـتْن السَّـمَاءِ خَـدِيمُ [45]
تَـرَى السـفنَ فِيهَـا جَارِيَـاتٍ كَأَنَّهـا جِيَـادٌ فَمِنْهَـا سَـابِقٌ ولَطِـيمُ[46]
وَعِنْـدَ الحِصَـارَيْنِ المنيعَـينِ جَيـرَة حَـديثٌ عَلَاهـم فـى الأنَـامِ قَـدِيمُ
عَجِبْـتُ لأيَّـامِى بهـم كَيْـفَ لَـمْ تَـدُمْ وَهَـلْ دَامَ شَـىءٌ غَيرهَـا فَتَـدُومُ [47]

ويتحدث حسن بن زين الدين الشهيد العاملى ، المعروف بالشامى [48] فى الحنين إلى الوطن ، ولكنه يركز حديثه على أثر هذا الفراق على قلبه وما أصابه من حزن وألم لفراق من يحب ويهوى من الأحباب والأصدقاء والأقارب والأهل ، فأصبح فى شعره وكأنه يتغزل فى محبوبته التى فارقها منذ زمن بعيد ، وبالرغم من ذلك لم ينطفأ ألم الفراق من قلبه ، فهو دائمًا حزين مولع بها، يتفكر فيها وفى غيرها ، وكلما نظر إلى شخص أو شجرة أو بيت أو دار أو حتى طائر يطير فى السماء أو يقف على غصن شجرة ، تذكر هؤلاء الأحباب وأحزنه ذلك:

طولُ اغْتِرَابِى بِفَرْطِ الشَّوْقِ أضْنَانِى والبينُ فِى غَمَرَاتِ الوَجْدِ ألْقَانِى[49]
يَا بَارِقًا مِنْ نَوَاحِى الحىِّ عَارَضَنِى إلَيْكَ عَنِّى فَقَدْ هَيَّجْتَ أشْجَانِى[50]
فَمَـا رَأيْتَـكَ فـى الآفَـاقِ مُعْتَرِضًـا إلاَّ وَذَكَّرَتْنِـى أهْلِـى وأوْطَـانِى
ولا سَـمِعْتُ شَـجَا الوَرْقَـاءِ نَائِحَـةً فى الأيك إلا وشبَّتْ مِنْهُ نِيرَانِى[51]

(45) خديم : خادم أو خادمة .
(46) قال ابن منظور: اللَّطِيمُ بلا فِعْلٍ من الخيل الذي يأْخذ خدَّيه بياضٌ وقال أَبو عبيدة إِذا رجعت غُرّةُ الفرس من أَحد شِقّي وجهه إِلى أَحد الخدّين فهو لَطِيمٌ وقيل اللَّطِيمُ من الخيل الذي سالت غُرّتُه في أَحد شِقّي وجهه .
(47) خلاصة الأثر للمحبى : 1 / 318
(48) هو حسن بن زين الدين الشهيد العاملى ، المعروف بالشامى ، من شعراء الشام ، نزل مصر وأقام بها ، وله مصنفات منها : منتقى الجمان فى الأحاديث الصحاح والحسان ، وكتاب المعالم والإثنى عشرية ، ومنسك الحج ، ولد سنة 954 هـ وتوفى سنة 1011 هـ .
خلاصة الأثر للمحبى : 2 / 21 ، 23
(49) فرط: الشدة والكثرة من الشيء ، البين : الفراق والبعاد بعد طول اجتماع الشمل . والضَّنَى: الأوجاع والأمراض الشديدة . وقيل : السَّقِيمُ الذي قد طالَ مَرَضُه وثَبَتَ فيه . وغَمَراتٍ : واحدتها غَمْرةٌ والمُغامِرُ والمُغَمِّرُ المُلْقي بنفسه في الغَمَراتِ والغَمْرة الزَّحْمةُ من الناس.
(50) الشَّجَنُ الهمّ والحُزْن والجمع أَشْجانٌ وشُجُونٌ شَجِنَ بالكسر شَجَناً وشُجُوناً فهو شاجِنٌ وشَجُنَ وتشَجَّنَ وشَجَنَه الأَمرُ يَشْجُنُه شَجْناً وشُجُوناً وأَشْجَنَهُ أَحزنه ، ويقال: شَجَنتِ الحمامة تَشْجُنُ شُجُوناً ناحت وتَحَزَّنتْ والشَّجَنُ هَوَى النَّفْس والشَّجَنُ الحاجة والجمع أَشْجان .
(51) الورقاء: الحمامة في لونها بياض إِلى سواد . الأَيْكةُ الشمر الكثير الملتفّ وقيل هي الغَيْضة تُنْبِتُ السَّدْر والأَراك ونحوهما من ناعم الشجر . وقيل الأَيْكة جماعة الأَراك .

كَـمْ لَيْلَـة مِـن لَيَـالى البَـيْنِ بِـتُّ بهـا أرْعَى النّجومَ بِطَرْفٍ وَهْى تَرْعَانِى
كَـأنَّ أيْدِى خطـوبِ الـدَّهْرِ منْذُ نَـأَوْا عَنْ نَاظِرَى كحّلت بالسّهْدِ أجْفَانِى[52]
وَيَـا نَسِيمًا سَرَى مِن حيِّهم سَحَرًا فـى طَيِّـهِ نَشْـر ذاكَ الرَّنْـدِ والبَـانِ
أحْيَيْـت مَيْتًـا بِـأَرْضِ الشَّـامِ مهْجَتـهُ وفـى العِـرَاقِ لَـهُ تَخْيِيـلُ جثْمَـانِ
وكَمْ حَيَيْت وكَمْ قَدْ مِتُّ مِن شَجَنٍ مـــا ذاك أوَّل إحيـــاءٍ ولا الثَّـــانِى
شَابَتْ نَوَاصِى من وجدى فَوا أسَفى عَلَـى الشَّـبَابِ فَشَـيْبِى قَبْـل إبـانِى
يَـا لائِمِـى كَـمْ بهـذا اللَّـوْمِ تزْعِجنِـى دعنـــى فلومـــك قـــد والله أغرانِـــى
لا يسكنُ الوَجْـدُ مَـا دَامَ الشَّـبَابُ ولا تصـــفو المشَـــارِبُ لِـــى إلاَّ بلبْنَـــانِ
فى ربْعِ أُنْسِى الذى حل الشَّبَابُ بِهِ تمـائِمِى وبِـهِ صَـحْبِى وَخِلَّانِـى[53]
كَـمْ قَـدْ عَهِـدْتُ بِهَاتِيـكَ المعَاهِدِ مِـن إخْـوَانِ صِـدْقٍ لَعَمْـرِى أىَّ إخْـوانِ
وكَـمْ نقَضَـتْ لنـا بِـالحَىِّ أوْنَـةٌ عَلَـى المسَـرَّةِ فِـى كَـرْمٍ وبسْـتَانِ
لـم أدْرِ حَـالَ النَّـوَى حَتَّـى عَلِقْتُ بِـهِ فَغَمْرَتِـى مِـن وقـوعِى قبـل عِرفَـانِى
حتَّام دهرى على ذا الهوْنِ تمسكنِى هَـــلَّا جَنَحَـــتْ لِتَسْـــرِيحٍ بِإحسَـــانِ
أقْسَمْتُ لَـوْلا رَجَـاءُ القرْبِ يسْعفنِى فَكُلَّمَـــا مِـــتُّ بالأشْـــوَاقِ أحْيَـــانِى
لَكِدْتُ أقْضِى بِهَا نَحْبِى وَلَا عَجَبٌ كَـمْ أهْلَـكَ الوَجْـدُ مِـن شِـيبٍ وشَـبَّانِ
يـا جِيـرَةَ الحـىِّ قَلْبِـى بَعْـدَ بعـدِكمُ فى حِيرةٍ بَيْنَ أوْصَابٍ وأحْزَانِ(54)
يمضـى الزَّمَـانُ عَلَيْـهِ وهـو ملْتَـزِمٌ بحـــبِّكمْ لَـــمْ يدَنِّسْـــهُ بِسُـــلْوانِ(55)
بـاقٍ علـى العَهْـدِ رَاعٍ للـذِّمَامِ فَمَـا يشـــوبُ عَهْـــدَكم يَوْمًـــا بِنِسْـــيَانِ
فَـإنْ بَرَانِـى سَـقَامِى أو نَـأَى رَشَـدِى فَلاَعِـجُ الشَّـوْقِ أوْهَـانِى وَأَلْهَـانِى(56)
وإنْ بَكَـتْ مقْلَتِـى بَعْـدَ الفِـرَاقِ دَمًـا فَمِـنْ تَـذَكركِم يَـا خَيْـرَ جِيـرانِ [57]

(52) الخَطْبُ الشَّأْنُ أَو الأَمْرُ صَغُر أَو عَظُم .
(53) (الخليل) : الصديق الخالص والناصح والضعيف الجسم ويقال جسم خليل نحيف مهزول ورجل خليل فقير معدم محتاج والجمع أخلاء و خلان وهي خليلة والجمع خلائل .
(54) الوَصَبُ الوَجَعُ والمرضُ والجمع أَوْصابٌ ووَصِبَ يَوْصَبُ وَصَباً فهو وَصِبٌ وتَوَصَّبَ ووَصَّبَ وأَوْصَبَ وأَوْصَبَه اللّهُ فهو مُوصَبٌ والمُوَصَّبُ بالتشديد الكثير الأَوْجاع .
(55) قال ابن منظور: السُّلْوانَة خَرزَةٌ للبُغْضِ بعد المَحبَّة ابن سيده والسَّلْوَة والسُّلْوانة بالضم كلاهما خَرَزة شَفَافَة إذا دَفَنْتها في الرمل ثم بَحَثْت عنها رأَيْتها سوداء يُسْقاها الإنسانُ فتُسْلِيه.
(56) اللاَّعِجُ الهَوى المُحْرِقُ يقال هَوًى لاعِجٌ لحُرْقَةِ الفُؤَادِ من الحُبّ ولَعَجَ الحُبُّ والحُزْنُ فُؤَادَهُ يَلْعَجُ لَعْجاً اسْتَحَرَّ في القلب ولَعَجَه لَعْجاً أَحْرَقَه ولَعَجَه الضَّرْبُ آلَمَه وأَحْرَق جِلْده .
(57) خلاصة الأثر للمحبى : 2 / 22 - 23

ويظل يتحدث عن هذا الحرمان والآلام التى لم تترك قلبه فى يوم من الأيام ، حتى جمعت فى جسمه النحيل الضعيف المسكين الكثير من الأسقام والأمراض التى ترفض أن تفارقه ، وبالرغم من ذلك ، فإنه ينادى قلبه ويطلب منه أن يتصبر على هذه الوحدة القاتلة ، والبعاد المدمر الذى زلزل كل كيانه ومشاعره ، حتى كاد أن ينتقل به من مرحلة التعب والمرض والهزال الشديد ، إلى الموت المحقق ، وخروج الروح من الجسد بكل تأكيد :

فـؤَادِى ظَـاعِنٌ إثْـرَ النِّيَـاقِ ... وجِسْـمِى قَـاطِنُ أرْضِ العِـرَاقِ
ومِنْ عَجَبِ الزَّمَانِ حَيَاة شَخْصٍ ... تَرَحَّـلَ بَعْضـه وَالـبَعْضُ بَـاقِى
وَحَـلَّ السَّـقَمُ فِـى بَـدَنِى وَأَمْسَـى ... لـه لِيـل النـوى ليـل المحـاقِ
وَصَـبْرِى رَاحِـلٌ عَمَّـا قَلِيـل ... لِشِـدَّةِ لَـوْعَتِى وَلَظَـى اشْـتِيَاقِى
وَفَـرْط الشَّـوْقِ أصْبَحَ بِـى خَلِيعًـا ... ولمـا يَنْـوِ فِـى الـدّنْيَا فِرَاقِـى
وَتَعْبَـثُ نَـارُهُ فِـى الـرُّوحِ حِينًـا ... فَيوشِـكُ أَنْ تَبْلغَهَـا التَّرَاقِـى
وأظْمَـانِى النَّـوَى وَأَرَاقَ دَمْعِـى ... فَـلا أرْوى ولا دَمْعِـى بِرَاقِـى
وَقَيَّـدَنِى عَلَـى حَـالِ شَـدِيدٍ ... فَمَـا حَـرَز الرّقَـى مِنْـهُ بِرَاقِـى
أَبَـى الله المهَـيْمِنُ أنْ تَرَانِـى ... عيـون الخلْـقِ محلـول الوَثَـاقِ
أبِيتُ مَدَى الزَّمَانِ بِنَارِ وَجْدِى ... عَلَـى جَمْـرٍ يَزِيـدُ بِـهِ احْتِرَاقِـى
وَمَـا عَيْشُ امْرِىءٍ فِـى بَحْرِ غَمّ ... يضَـاهِى كَرْبَـهُ كَـرْب السِّـيَاقِ
يَـودُّ مِـنَ الزَّمَـانِ صَـفَاءَ يَـوْمٍ ... يَلُـوذُ بِظِلِّـهِ مِمَّـا يلاَقِـى
سَـقَتْنِى نَائِبَـاتُ الطّهْـرِ كَأْسًـا ... مَرِيـرًا مِـنْ أبَـارِيقِ الفِـراقِ
ولَـم يَخْطـرْ بِبَـالِى قَبْـلَ هَـذَا ... لِفَـرْطِ الجهْـلِ أنَّ الـدَّهْرَ سَـاقِى
وَفَـاضَ الكَـاسُ بَعْـدَ البَـيْنِ حَتَّـى ... لَعَمْـرِى قَـدْ جَـرَتْ مِنْـهُ سَـوَاقِى
فَلَـيْسَ لِـدَاءٍ مَـا أَلْقَـى دَوَاء ... يؤَمِّـلُ نَفْعـهُ إلَّا التَّلَاقِـى (58)

وكذلك وجدنا أن الأمير منجك قد أخذ يتحدث عما أصابه فى الغربة عن الشام من ألم وحزن شديد ، حتى كادت آلامه وأحزانه تؤدى بحياته ونفسه إلى الهلاك ، وهو يسير فى ذلك على نمط أبى فراس الحمدانى :

نَـزِيحُ دِيَـارٍ لاَ أَنِـيسَ ولَا صَـحْبُ ... وَعَاتَـبَ دَهْـرٍ لَـيسَ يعْتِبُـهُ العتْـبُ
مَنَازِلُـهُ بِالشَّـامِ أضْـحَتْ خَالِيَـةً ... حَكَت جِسْمَهُ إذْ سَارَ عَنْ جِسْمِهِ القَلْبُ
لَـهُ صِـبْيَةٌ عِنْـدَ العـدَاةِ رَهِينَـةً ... وَمَـدْمَعهم مِـنْ فَـرْطِ لَهْفِهِـمِ صَـبُّ

(58) خلاصة الأثر للمحبى : 2 / 23

عـرَاةً إذَا نَـاموا تَـيَقّظَ شَـرهم ... فَـأَمْنهمْ خَـوْفٌ وَسِـلْمهمْ حَـرْبُ
جَنَيـتُ عَلَـى نَفْسِـى الـذَّنْبُ كلّـهُ ... بِسَـيْرِى وَمَـا للـذَّنْبِ فِـى فِعْلِـهِ ذَنْـبُ
غـررْتُ بِـأقْوَامٍ وُعـودهم هَبَـا ... تَمـرُّ جَهَامًـا واسـمها عِنْـدَهمْ سـحبُ
يُلَبّـونَ بِالـدَّعْوى لِطَالِـبِ سَـيْبهمْ ... وَلَوْشَاهَدُوا فِلْسًا عَلَى الأرْضِ لانْكَبّوا
وَلَـمْ أرَ مِـنْ قَبْلِـى عَلِـيلاً طَبِيبـهُ ... سَقِيمٌ اخْتِبار لَـيْسَ يعْرَفُ مَـا الطَّلَبُ
يمـدُّ لِصَـيدِ المـدْحِ مِنّـى حبَالَـة ... عَلَـى الغَـدْرِ مَعْقودٌ بِأطْرَافِـهِ الكَـذِبُ
وَمَـا النَّـاسُ إلاَّ حَيْـثُ يلْـتَمَسُ النَّـدَى ... وَمَـا الطَّيْـرُ إلَّا حَيْـثُ يلْـتَقَطُ الحـبُ
رَجِعْـتُ وَعَـوْنُ الله لِلمَـرْءِ حَـارِسٌ ... وَطَرْفِـى لَا يَكْبـو وَنَـارِى لا تَخْبـو (59)

ووجدنا فى العصر العثمانى أن بعض الشعراء قد انتقل من مرحلة التشوق إلى بلده التى ولد فيها ، أو التى تربى فى رباعها وأحضان ديارها ، إلى التشوق إلى ليلة من الليالى الخالية التى قضاها مع أحد الأحبة والأصدقاء ، ويتمنى من الله تعالى أن يعيد عليه مثل هذه الليلة الجميلة ، ومن هؤلاء الشيخ أيوب الخلوتى الذى قال متذكرًا ليلة مضت عليه فى روض من الرياض ، ويتشوق إليها :

ولَيلَتُنَـا علـى قاسـيُونَ لـمَّا ... خرجْنَـا مـن منازِلِنَـا ذهَابَـا
وسِـرْنَا والغـزالُ لنـا دليـلٌ ... ووجْـهُ غزَالـةِ الأفْـلَاكِ غَابَـا (60)
لِقَصْرِ أبِى البَقَا شرُف اعْتِلاءً ... وطَـابَ لنـا منازلُـه رحَابَـا
حطَطْنَـا فيـهِ أحمـالاً ثِقَـالاً ... عن الظهرِ الذى قد صارَ قَابَا
ومن فضْلِ المُدَامِ لقد حَظَيْنَا ... بِشَـمَّاسٍ يـدِيرُ لنـا الشَّـرَابَا
بِمَدْرَعَـةٍ تخَـالُ سَـوادَ عيْنِـى ... لِتمْثَـالٍ لهـا حـاكى قُنَابَـا (61)
وغنَّـى والظَّـلامُ لنـا رضِـيعٌ ... وقمتُ وكـان رأسُ الليـلِ شـابَا
ونـادَى بـالآذَانِ فقلـتُ : أهـلاً ... بـذاكَ وكنـتُ أولَ مـن أجابَـا
لأنَّ الصُّبْحَ أشْهَرَ سيفَ حَرْبٍ ... وجنْحَ اللَّيْـلِ كـان لـه قِرَابَـا (62)

ويتذكر فى قصيدة أخرى ليلة قضاها مع فاتنة من الفاتنات تخجل القمر من جمالها ، وقضى الليلة معها فى شرب المدام ، وقد كسى الليل عليه أستاره ، ونام فيها حساده :

(59) خلاصة الأثر للمحبى : 4 / 412 - 413
(60) غزالة الأفلاك : الشمس .
(61) القناب : وتر القوس .
(62) القراب : الجراب ، وهو جراب السيف أو غمده . نفحة الريحانة للمحبى : 1 / 548 - 549

وليلـــةٍ بـــتُّ فيهـــا لا أرى غِيَـــرًا مـعَ شـادِنٍ وجهـهُ قـد أخْجَـلَ القَمَـرَا
نادمْتـه قـال هـاتِ الكـأسَ قلـتُ لـه : جَـلَّ الـذِى لافْتِضَـاحِى فيـكَ قـد سَـتَرَا
وقُمْتُ أرشفُ من ريقِ المُدَامِ ومِن مـدَامِ ريـقٍ وأقْضِـى فـى الهـوَى وَطَـرَا
ولفَّنَـا الشَّـوْقُ فـى ثَـوْبَىْ تُقـىً وهـوىً وطالَ بالوصْلِ لى واللَّيْلُ قد قَصُرَا(63)

ويقول أيضًا :

وليلَتُنَـا بـالأمسِ كانـتْ عجيبـةً وفِينَا غزَالٌ أدْعَجُ الطّرْفِ أحْوَرُ
سـألتُ إلهِـى أن تعـودَ لمثلِهَـا بِعَـوْدِ التَّجَلِّـى قِيـلَ: لا يتَكـرَّرُ(64)

وبالرغم من أن الغربة أو الاغتراب عن الوطن لا تربطهما بالغزل رابطة قوية ، فإننا وجدنا أن بعض الشعراء قد جعل من الغزل وسيلة للحديث عنهما ، وجعل الحديث عن لوعة الحب والشوق إلى المحبوبة وسيلة للحديث عن لوعة فراق بلاده وأوطانه وإحساسه المؤلم بمفارقته ، ومن ذلك قول الكيوانى :

أمسَى المعَنَّى يُعانى ما يُعانيهِ منَ الأسَى ويُقاسِى ما يقاسِيهِ
باتتْ تذوبُ من الأشواقِ مهجتُهُ فتستهِلُّ دمًا صرفًا مآقِيهِ(65)
وبارقٍ بات جنح الليل يضحك فى جوّ الحجازِ ولى طرفٌ يُراعيهِ
باتت تسلّ على قلبى صوارمُه وتستهلُّ على نجدٍ سواريهِ (66)
هلاَّ سقيتِ ريَاضَ الشامِ مُنْسَجِمًا فى منـزلٍ أصبَحتْ قفرًا نواحِيهِ(67)
قد كانَ يضحكُ للزوار منزهُهُ واليومَ يبكِى من الإقواءِ عافِيهِ(68)
لله عيشٌ نهينَاهُ به رغدًا كانت كأيامِهِ بيضًا لياليهِ
لم يبقَ منه لنا إلا تذكّرُهُ وكان أروحَ لو يلفى تناسِيهِ (69)

(63) نفحة الريحانة للمحبى : 1 / 549
(64) نفحة الريحانة للمحبى : 1 / 550
(65) مهجته : روحه ، مآقيه : عيونه ، صرفًا : صافيًا .
(66) الصوارم : جمع صارم وهو السيف الجيد الصنع ، حاد السنان . والسواري أي أمطار الليل ، يقال : السارية من السحاب: الذي يجيء ليلا.
(67) قفرًا : خالية من سكانها وأهلها ، كما أنها ليس فيها زرع ولا ماء .
(68) الأقواء : جمع قَواء وهو القفْر الخالي من الأرض .
(69) ديوان الكيوانى : 63 – 64 ، تاريخ الأدب العربى فى العصر العثمانى لعمر موسى باشا : 543

الاغتراب فى النثر :

وقد انتقل الحديث عن الغربة والاغتراب فى العصر العثمانى من الشعر إلى النثر متمثلاً فى الرسائل الإخوانية ، التى كان يتداولها الكتاب والأدباء والشعراء فيما بينهم ، كل منهم يبث الآخر لواعج شكواه، وحرقة قربه على فراقه إياه ، وفراق دياره وأهله وأحبابه ، ومن ذلك أن " محمد أمين المحبى " كان قد أرسل قصيدة طويلة إلى السيد سليمان الحموى ، فلما وقف عليها السيد سليمان الحموى كتب على وزنها ورويها وضمنها رسالة طويلة ، وقد جمعت هذه الرسالة بين الشعر والنثر ، وبين الحديث عن الاغتراب عن الديار والأوطان والاغتراب عن الأصحاب والأحباب ، ولهذا حرصت على ذكر الرسالة كاملة ، وقد وجدناه يقول فيها :" إن أشرف ما نمَّقَه قلم ، وأتْحفَ ما نمْنَمَه رقم ، وأبْهجَ ما تَزَيَّن به طِرْس، وأبْدَعَ ما جرى به نِقْس(70) سلامٌ أضْوَعُ من شَمِيمِ الكِبَا(71) وألطفُ من نسيم الصَّبا، وأعطرُ من أرَج أزهار الرِّياض ، وأسحر من تغازُل الأجفان المِراضِ . وأثْنِيةٌ لا يُحْصَى عدُّهَا ، وأدعيةٌ لا تنقطعُ مَدَدُهَا . أهدِى ذلك إلى جناب من لا أسميه لجلالته، ولا أكنيه،وقدره المعتلى عن ذلك يغنيه. حرس الله ذاته العلية، وجمل الوجود بصفته السنية.وبعد ، فإن تفضل المولى بالسؤال ، عن كيفية الحال.فالعبد لله الحمد ذى المنن الوافية ، فى بحبوحةِ الصحة والعافية . غير أن الشوق شبَّ عَمْرُه عن الطَّوْق(72) يسَّر الله الاجتماع بكم إنه ولىُّ التيسير :" وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِير"(73) والذى يعرِضه هذا الدَّاعى ، أن المولى من حين أشرقَ فى فلك مصر بدرُه الكامل ، وغاب عن أفق شامنَا الذى هو للمحاسن شامل . لم يزل العبدُ لألم البيْنِ مُكَابِدَ القلق والضجر ، مُتطلِّعًا لأخباركم السَّارة حتى ظفر منها بأبلغ أثر . وذلك قصيدتكم الرَّافلةُ فى الحُلَلِ البهيَّة ، المتضمنة لمدْح الأستاذ ووصف بركة الأزبكية (74) التى سجد لبلاغة نظامها من هو أبلغُ من الوليدُ(75) ، والفريدة التى كلُّ بيت منها بألف قصيد . لا برحتْ جواهرُ ألفاظ مولانا قلائدَ لذَوِى التحقيق ، وعرائسُ أبكار يُقِرَّ الأعينَ بالعين ، وتصدَّيْتُ لِعَرْضِ أشواقى التى

(70) النقس : المداد .
(71) الكباء : عود البخور .
(72) أخذ هذا المثل من قولهم فى المثل العربى : شب عمرو عن الطوق ، وهو عمرو بن عدى ، ويضرب هذا المثل فى تزيين الكبير بزينة الصغير .
(73) سورة الشورى : 29
(74) بركة الأزبكية : بركة كانت موجودة حتى نهايات العصر العثمانى فى القاهرة بمنطقة تسمى الأزبكية .
(75) يعنى البحترى واسمه الوليد بن عبادة .

خرجتْ عن حدِّ الحصر ، بأن أعارضَها بقصيدةٍ أُهديها لأوحدِ العصر ؛ لتكون لأثَرِ الشوقِ قافية، فأشبهتْهَا ولكن وزنًا وقافية، ومن يقوى لمُعارضة البحر الكامل، وأين الثُّرَيَّا من يد المتناول . وَصَلَ الله له أسبابَ نتائج الأمل ، مُتَلَفِّعةً (76) بأسمالها ، تعثُر فى ذيلها من الخجل . فتلقَّفتها بالبِشر والقَبُول ، وأنزلتها منك بأحسن منزول ، وأسْبِلْ عليها من حُلَلِ إحسانكَ سترًا ؛ لأنك من أهل البيت وصاحب البيت أدرى . والقصيدة هى هذه :

أَسَقِيطُ طَلٍّ جال فى ... زُهْرِ الرِّيَاضِ السُّنْدُسِيَّهْ[77]
أم ثَغْرُ وَضَّاحِ المبا ... سِمِ ذِى الثَّنَايَا اللُّؤلؤيَّهْ[78]
أم وَحْيُ حَوْرَاءِ اللَّوا ... حِظِ أم عقودٌ جوهريَّهْ
أم نِسْمَةٌ شِحْرِيَّةٌ ... نفَحَتْ فجاءتْ عنبَرِيَّهْ[79]
أم روضةٌ غَنَّاءُ يا ... نِعَةٌ أزَاهِرُهَا زَهِيَّهْ
أم ذاك نَفْثُ السِّحْرِ من ... مولاى أرسله هديَّهْ
أعنى الأمينَ أمينَ كنـ ... ـزِ الفضْلِ بسَّامَ العشِيَّهْ
حاوِى الفصَاحةِ والبَلاَ ... غةِ والصِّفَاتِ الألمعِيَّهْ
سادَ الورَى بشَمَائلٍ ... عنوانُهَا النَّفْسُ الزَّكِيَّهْ
فرْعٌ زَكِيٌّ أصلُهُ ... خيرُ الخلائقِ والبَرِيَّهْ
يا مُجْلِيًا بِكْرَ المعا ... نى الغرِّ بالكَلِمِ الجَلِيَّهْ
لله دَرُّ عَقِيلَةٍ ... ألْبَسْتَهَا الحُلَلَ السَّنِيَّهْ
وبعثْتَهَا تَرْوِى أحا ... ديثَ الكرَامِ الأريحيَّهْ
مَنْ ذَا يساجِلُكَ النِّظَا ... م وأنتَ سَحَّاحُ السَّجِيَّهْ[80]
أدَبٌ كأزْهَارِ الرُّبَى ... سقِيَتْ بأخْلاَقٍ رويَّهْ
وشَوَارِدٌ سارتْ بها الرُّ ... كْبَانُ للمُدُنِ القَصِيَّهْ
غُرَرٌ كأنَّ رَوِيَّهَا ... دُرُّ الثُّغُورِ الألْعَسِيَّهْ
كادَتْ لِرِقَّتِهَا تَسِيـ ... ـلُ فتَرْتَوِى كَبِدٌ صَدِيَّهْ

(76) متلفعة : تلبس لباسًا حول وجهها .
(77) الطل : المطر القليل السقوط .
(78) المباسم : جمع مبسم وهو الفم .
(79) شِحْرِيَّةٌ : مرغوب عنها.
(80) سحاح : يقال : سَحَّ الماءُ يَسُحُّ سَحًّا، أي سال من فوق؛ وكذلك المطر والدَمْع. وسَحَّهُ مائة سوط، أي جلده. وسحابَةٌ سَحوحٌ. يقصد أنه كالمطر فى الكلام ، من بلاغته . السجية : الطبيعة .

يا سيِّدًا كمْ راضَ لى ... فى النَّظْمِ قافيةً عصِيَّهْ
يا أوْحَدَ العصرِ الذى ... حَازَ الهِبَاتِ الحاتِمِيَّهْ[81]
أوَمَا كفَى بِفِرَاقِ طَلْـ ... ـعَتِكَ البهِيَّهْ لى بلِيَّهْ
حتَّى نَسِيتَ عهودَ وُدٍّ ... ى بعد إخلاَصِ الطَّوِيَّهْ
ثم انثَنَيتَ فَهِجْتَ لى ... شَجَنًا بِذِكْرِ الأزبَكِيَّهْ
وسَلَوْتَ عن وادى دِمَشْـ ... ـقَ وما حوى والصَّالِحِيَّهْ
ذاتِ المنَارة والجوا ... سِقِ والرِّيَاضِ الأرْيَضِيَّهْ
والنَّيْرَبَيْنِ الأفْيَحَيْـ ... ـنِ بها وغُوطَتَهَا البَهِيَّهْ
والسَّبْعَةِ الأنهارِ تجْـ ... ـرى فى البِقَاعِ الأقدَسِيَّهْ
والوُرْقُ يُبْدِى لحنُهَا ... بالجُنْكِ أصْوَاتًا شَجِيَّهْ
وعليلِ مِسْكِيِّ الصَّبَا ... يَهْفُو بأنْفَاسٍ نَدِيَّهْ
والمَرْجَةِ الخضرَاءِ إذْ ... فُرِشَتْ بِبسْطٍ عبْقَرِيَّهْ
ومَسَارحِ الآرَامِ فى ... أرجائهَا وَقْتَ العَشِيَّهْ
من كلِّ أغْيَدَ مشْرِقٍ ... أبْهَى من الشَّمْسِ المضِيَّهْ
يفْتَرُّ عن شَنَبٍ أغرَّ ... حوَى صِحَاحَ الجوْهَرِيَّهْ[82]
وجَنَاتُهُ اليَاقُوتُ والـ ... ـخيلاَنُ أضْحَتْ عبقرِيَّهْ
ولِحَاظُهُ فعلتْ بِنَا ... أضعافَ فعلِ المَشْرَفِيَّهْ(83)
عن بابلٍ أخذتْ فنو ... نَ السِّحْرِ فهْى البَابِلِيَّهْ
يرنو فيرمِى أسهمًا ... منها وحَاجِبُهُ الحَنِيَّهْ
يصْمِى ولا يدرِى بأنَّ ... فؤادَ مضْنَاهُ الرَّمِيَّهْ
لَدْنُ المَعَاطِفِ قدُّه ... قدُّ الرِّمَاحِ السَّمْهَرِيَّهْ
نشْوَانُ من خمرِ الدَّلا ... لِ سقِى بكاسَاتٍ رويَّهْ
فكأنَّهُ ملِكٌ وألْـ ... ـبابُ الأنامِ له رعِيَّهْ
هَذِى مَحاسِنُ جِلَّقَ الـ ... ـفيْحَاءِ تفدِيكَ البريَّهْ
أُنْمُوذَجًا منها وصْـ ... ـتُ وأنتَ أدْرَى بالبَقِيَّهْ
فبِأىِّ عذرٍ مِلْتَ عن ... رؤيا محاسِنها الشَّهِيَّهْ
حيَّ الإلهَ جمالَ وَجْـ ... ـهِكَ بالرِّضَا أسْنَى تحِيَّهْ
مولاىَ هل من نَظْرةٍ ... صِدْقُ الوِدَادِ لها مَزِيَّهْ

(81) الحاتمية : نسبة إلى حاتم الطائى .
(82) شنب : يقال : ثغر أشنب، وفيه شنب وهو رقته وصفاؤه وبرده.
(83) المشرفية : السيوف المشرفية وهى سيوف قوية .

فلَـوَاعِجُ الأشْـوَاق فـى الـ ـــأحْشَاءِ جمرتُهَـا ذَكِيَّـهْ
أنَـا عبـدُكَ الخِـلُّ الـوَفِىُّ ولـيسَ حـالاتِى خفِيَّـهْ
فاسـلمْ فـدَيْتُكَ حيـثُ كُنـ ـتَ ودُمْ بِعِيشَـتِكَ الرَّخِيَّـهْ
وإليكَهَـا رُعْبُوبـةً تُنْبِيـكَ عـن حسْـنِ الطَّوِيَّـهْ
حَمَوِيَّـةً شـامِيَّةً وافـتْ بفاكِهـةٍ جَنِيَّـهْ
فاسْـبِلْ عليهـا مـن جميـ ـلِ السِّـتْرِ أرْدِيـةً نقِيَّـهْ
لازلـتَ ممـدُوحَ الصِّـفَا تِ الغـرِّ محمـودَ السَّـجِيَّهْ
مـا غـرَّدت وُرْقُ الحمَـا ئِمِ فـى الرِّيَـاضِ السُّنْدِيَّهْ [84]

وكتب بعد هذه الأبيات يقول :

"ولما وردتْ علىَّ وكنتَ مُقِيمًا ببولاق ، وأنا حليفُ أخلاقٍ أخلاق . وذلك لفقد الأنيس ، حتى اليعافير[85] والعيس[86] . لا أرى رديفًا إلاَّ من القافية ، ولا أطلب صديقًا إلا من العافية ، ولا ذُقتُ إلاَّ ماءَ عينى مَشْربًا ، ونِلتُ إلا لحمَ كفِّى مَطْعمًا . وقد عرفتُ شأنى وزمانى ، وخلعتُ من عنقى رِبقةَ الأمانى . لا تُزعجنى المُهِمَّة إلى استعمال الهِمَّة، وأنا ناظرٌ إلى نفسى بالذنب والتُّهمة . وفارقتُ العيونَ الصِّحاح ، والألفاظَ الفصاحَ . والرِّيَاضَ النَّواسِم ، والثغورَ البَواسم . والمواطنَ التى عرفتُ بافتراعِ الأحاسنِ ناسَها ، وألقيتُ بها أزِمَّةَ الآداب ترُوق أنواعها وأجناسها . فكتبتُ إليه وضرورتِى مشروحة ، ودعوى التَّحامل عن كتفى مطروحة . وأستوهب الله رحمةً تجعل عِنانى فى يد التوفيق، وتصرف عيانى عن هذه الوحدة إلى الفريق الرَّفيق . وَصَلَ كتابُكَ فاتَّفقتِ القلوبِ على تفضيله ، واختلفت الألسنة فى تمثيله. فمن مُدَّعٍ أنه رُقْيَةُ الوصل، وريقة النحل . ومُنْتَحِلٍ أنه دُرَّةُ النَّحر ، ولؤلؤةُ البحر . وقائلٍ هو السُّكَّر المعقود ، وسُلافُ العنقُود . فأمَّا أنا فتركتُ التشبيه ، وقلت ما له مثيل ولا شبيه . بَنَتِ البلاغةُ سماءَ بيانِه، وحُشِرَ الحسْنُ بين قلم مُنْشِه وبَنَانَه . فعيْنُ الله على هذه الألفاظ الغُرّ التى يحسدها على اتِّسَاقِها الياقوتُ والدُّرُّ . وقد عرَّفْتَنِى من خَبَرِ سلامَتِكَ ما رجوتُ له الدوام ، ودعوتُ له بالحفظِ من حوادثِ الأيَّام . وكان سرَى خيالك فشوَّق ، واستطار برْقُكَ فأرَّق . فأجفانُ الإخلاصِ ناظرةٌ إليك ، ويدُ القبول مُسَلِّمَةٌ عليك. وأما القصيدة التى هى دُرَّةُ التقاصير(87) ، وربيبةُ

(84) اليعافير : جمع يعفور وهو الظبى الذى بلون التراب .
(85) واليَعْفور: الخِشْفُ، وولد البقرة الوحشية أيضاً. وقال بعضهم: اليَعافيرُ ثُيوس الظباء.
(86) العيس: الابل البيضاء
(87) التقاصير : جمع التقاصرة ، وهى القلادة .

تلك المقَاصِير(88) . فقد وردت مؤكِّدَة لك المحبة فى القلوب ، والرغبة فى الوُدِّ المطلوب . وفطنتْ بتلك النِّيَّة ، وما أظنها كانتْ عن رويَّة . فهى كدعوة السائل ، إنما تجرى لتأكيد الوسائل . كيف ومَحَلُّها مُنْطَمِسٌ بغُبَار الأغيار، وحُقَّ لمن رأى غُبارَ بولاق أن يشكوَ صدأَ الأكدارِ. ولعلَّ السيد نظر إلى بيت العيون والرَّمِية ، فعلم أن النفسَ من مُخَالَسَتِها أبية .

فلو قاصِرَاتُ الطرفِ أقبَلْنَ كالمَهَا وقَبَّلْنَ راسى ما قبلتُ مَزارَهَا(89)

نعم القلبُ بعيونِ الشام عَلِق ، إلى أن يصير إلى ما منه خُلِق . فأما وحَدَقِها المِرَاض ، وسهامها التى تتمناها الأغراض . ورُنُوِّهَا ولو لحظةً فإن لها حقًّا ، وتلَفُّتِهَا ولو غلطةً فإنِّى عبدُهَا رِقًّا . إنى منذ ودَّعتُ بها حلاوةَ الرِّضَا ، ودَّعْتُ العيشَ المُرْتَضَى ، وبِتُّ على جمْرِ الغَضَا ، وحدِّ السيف المُنتضَى . وأنا الآن بِحُكْمِ الزمان مُسْتَودعٌ دارَ الهوان . أضحك للبُوسِ ، وأبَشُّ للوَجْه العَبُوس . وأتَصَفَّحُ وجوهًا لا أرجوها ، وأريد أمدحها ، والمروءةُ تهجوها . أكثرُهم شيخٌ يتَغَنَّى ، ويبرُز فى أطوار شتَّى . يأكل ما تأكل الناس ، ويخالفهم فى المشْرَب واللِّباس . له وجهٌ لا يشِف ، وعينٌ لا تَرِفّ . إذا تكَلَّمَ كَلَم ، وإذا بَشَّ أدْهَشَ وأوحشْ . كلامُه فى الرِّضَا ، مِثْلُ هزَّات القضا . خلق الله ذاتَه عِبرَةً للنَّوائب . وثمَّ من رُزِق فلْتَةً ، ورُمِق بغْتَة . عُمْر غِنَاه قصير ، وهو بطريق اللُّؤم بصير . فإذا رأيتَ رثاثةَ حالِه ، ونعمتُه لديه يُوشِك أن تدَّعِى غضَبَ الله عليها وعليه . وقد مَقَتُّ بهم الأيام وتصاريفها ، وسئمتُ الحياة وتكاليفها . ولو جهلت أن الحِذْق لا يزيد الرِّزق . لعذَرْتُ نفسى فى الرَّحْلِ أشُدُّه ، والحبلِ أمُدُّهُ . ولكنِّى أعلمُ هذا وأعمل ضِدَّه ، وأسير سيرًا يُنْكِر المرءُ فيه جُهْدَه . وإلاَّ فمن أخذنى بالمطار ، فى هذه الأقطار. حتى تركنى أُنازِلُ المحن ، وأعتبُ هذا الزَّمن . وأقول : قد بُليتُ فسه بأيام كأيام رمضان ، وليالٍ كلياليه . تلك كظِلِّ الرُّمح ، وهذه تهويمة الصَّبح . وكلاهُما تارةً بنار الجحيم يلتهب ، وآونةً بفيحه للحارِّ الغريزِىّ ينتهِب . قد أهلاَّ بالعادة، وجاوزوا المألوف بزيادة . وحشْوُهما ذُبَاب يبْرَح ويسنَحْ ، وبِعَدَمٍ مُبالاةٍ خُلَطائه لا يهفُّ للبراح ولا يجنح . وبُرْغُوثٌ كنقطة دَغَل ، أو سُويْداء دَخَل . يُدْرِكُ بطنِ مؤلِمٍ ، ويستحلُّ دمَ كلِّ مسلم . وبعُوضٌ يُطيل الألم ، ولا يفنىَ حتى يرتوى من شُرْبِ دم . وبقٌّ خارجٌ عما يُعْهد ، يُلِحُّ فى الوصولِ إلى العظمِ ويجهدْ . ووراء ذلك ضجيج ، ولا ضجيجُ الحجيج . وزحام يُبلى به الشخصُ من السَّحَر فى الطريق ، حتى يقول :

(88) المقاصير : جمع مقصورة ، وهى أصغر من الدار ، ولا يدخلها إلا صاحبها .
(89) البيت من شعر عبد الرحمن بن محمد العمادى : خلاصة الأثر للمحبى : 2 / 387

ما هذه القيامةُ على الرِّيق . وأما حديثُ قلة الأدب فمن هنا يؤثر ، والأقلُّ منهم تابعٌ للأكثر . وكيف يُرجى منهم حجاب ، ومكانُ الحياءِ منهم خراب . إلى غير ذلك من قبائح تركتها حذَرًا من تلويث الكتاب ، وفضائحَ لا يُلْبَس عليها ثياب .

هذا وأنا أحمدُ الله الذى لا يُحمدُ على المكروه سواه ، ولا يعرفُ قدرَ نعمته إلاَّ من عالجَ بلْوَاه . فلولا العلَّةُ لم تُحمد الصحة ، ولولا التَّرْحةُ لم تُطلب الفرحة . فانا فارقتُ الجنة تعلمة(90) آدم أبى ، واستبدلتُ نقيضَها بِطَرْفٍ نافرٍ وقلبٍ أبى . وخُضْتُ غِمارَ المهالك والرَّدَى ، ونظرتُ إلى الآخرة وأنا فى الدنيا . وتعوَّضتُ عن تلك الوجوه بهذه الوجوه ، واختلفتْ حالِى فأنا متناقض معهم فى كل ما أرْجوه . فما أشبهنِى بكحلٍ فى عين أعمى ، ومصباحٍ عند أكْمَه ، ونَغْمَةِ عودٍ عند أصمّ ، وخاتمٍ فى أصبُع أشَلَّ ، ودُرَّةٍ فى رأسِ قُرَوىٍّ ، وسُبْحَةٍ فى يدِ بدوىّ ، وسيفٍ فى قبضةِ جبان ، ومِصراعٍ تضمين فى شعر ابن غزلان ، أو فى أبى الغزلان . وإنى إلى مواضعِ إيناسى ، ومراتع غزلات صريم وكِنَاسِى ، أحَنُّ من حمامةٍ لفرْخ ، وأوْرَى شوقًا من عَفَار(91) ومَرْخ(92) ، وأنا مُقْدِمٍ على أدوات التَّوسُّل، متوسِّل بصاحب الشَّفاعة فى التَّوصُّل ، فعسى أُرَى وقتَ التَّلَفُّت، ولا علِقتْ لى بعدهَا لحظةٌ بالتَّلَفُّت . وإن نبذُوا بعدى الحصاة ، فلا أبَ لهم إن لم يكنسوا العَرَصَات . فإن عمدوا إلى أن يُقِدُوا فى أثَرِى النَّار ، فليُسْرِعُوا إلى أن يُثِيرُوا فى قفاىَ الغُبَار. وضراعتِى إلى السَّمِيع المُجِيب ، أن يجعل ذلك أقرب من كلِّ قريب . والسلام[93] .

(90) التعلامة : العالم والنسابة .
(91) العفار : الشجر الذى يتخذ منه الزناد .
(92) المرخ : شجر سريع الاشتعال .
(93) نفحة الريحانة للمحبى : 1 / 525 - 530

خاتمة :

من دراسة أدب الاغتراب فى الشعر العربى فى العصر العثمانى ، وجدنا ما يلى :

1. انتقل الحديث عن الغربة والاغتراب من الشعر ونظمه ، إلى النثر الأدبى كالرسائل والأقوال المأثورة والخطب وغير ذلك .

2. وأصبح الحديث عن الاغتراب والغربة عن الوطن وأثره فى القلب والنفس فيما قبل العصر العثمانى ، إلى الحديث عن اقتران الغربة النفسية والغربة البدنية فى العصر العثمانى .

3. واقترن شعر الغربة عن مرابع الأهل والأصدقاء مع شعر الغزل ، حيث قرنوا شعر الغربة عن الحبيبة أو المحبوبة مع الغربة عن الوطن ، وقد كان شعراء الغزل يفتتحون قصائدهم بالغزل والوقوف على أطلال ديار المحبوبة التى اندثرت وأصبحت مرتعًا للظباء والأبقار الوحشية وغير ذلك من حيوانات .

4. وخطا الحديث عن الغربة والاغتراب خطوات واسعة ناحية النثر وأصبحت الرسائل الإخوانية تجمع كل هذه المعانى والأغراض بين أحضانها، حيث يتشوق الكاتب المرسل إلى المرسل إليه، وإلى جلساتهم العلمية والأدبية وحتى جلسات لهوهم ومرحهم ، كما يتشوق إلى الديار التى جمعتهما معًا فى يوم من الأيام .

5. جمعت الرسائل الإخوانية بين الشعر ونظمه وبين النثر وسجعه بشكل ملحوظ فى أدب العصر العثمانى .

أهم المصادر والمراجع :

أولاً أهم المصادر :

1. ـ شهاب الدين الخفاجى : ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ، طبعة عيسى البابى الحلبى ، الطبعة الأولى ، 1386 هـ = 1967م.

2. الكيوانى(أحمد بن حسين باشا بن كيوان)، الديوان ، المطبعة الحنفية ، القاهرة، 1301 هـ.

3. المحبى (محمد أمين) : خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر ، طبعة مصر ، 1284 هـ .

4. المحبى (محمد أمين) : نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ،طبع بدار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى 1387هـ = 1969 م .

5. المحبى (محمد أمين) : ذيل نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة ، تحقيق : عبد الفتاح محمد الحلو ،طبع بدار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبى 1387هـ = 1969 م .

ثانيًا : أهم المراجع :

1. شوقى ضيف : الجزيرة ، الشام ، دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ.

2. شوقى ضيف : عصر الدول والإمارات (مصر والشام) ، دار المعارف ، القاهرة ، بدون تاريخ.

3. عمر موسى باشا : تاريخ الأدب العربى (العصر العثمانى) ، دار الفكر للطباعة والتوزيع ، دمشق ، 1989م .

4. كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربى (العصر العثمانى) ، القسم الثامن ، ترجمة :محمود فهمى حجازى ، وعمر صابر عبد الجليل ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1995م .